

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين..  
أما بعد..

قول الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- في سورة النبأ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ﴿٣٨﴾ من يطالع كتب التفسير بالمأثور والمنقول عن الصحابة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وعن تابعيهم بإحسان- في معنى هذه الآية الكريمة، يقف جلياً على مكانة التوحيد في قلوب الصحابة رضي الله عنهم، وعلى عظيم عنايتهم به، واهتمامهم بمقامه، وأنه أعظم المقاصد وأجلها على الإطلاق؛ فقد نُقِلَ عن غير واحد من الصحابة والتابعين في معنى قوله عزَّ جَلَّ: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي قال: لا إله إلا الله، وقالوا: هي منتهى الصواب؛ أي أن (لا إله إلا الله) هي الأساس الذي يُبنى عليه دين الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، ولا صواب إلا ما بُني على (لا إله إلا الله)، وكل عمل يُبنى على غير هذا الأساس فهو تباب وليس بصواب؛ لأنه ليس قائماً على أساسه وعماده الذي لا قيام له إلا عليه، ف(لا إله إلا الله) عليها قيام دين الله -جلَّ وعلا- وهي في الدين كالأصول في

الأشجار والأسس في البنيان ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿٢٤﴾ [إبراهيم] فكلمة التوحيد بهذا الدين بمثابة الأصل الذي يُبنى عليه دين الله ﷺ.

وقول الله جلَّ وعلا: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ فيه أن الشفعاء ومن جملتهم الملائكة -ملائكة الرحمن- لا يتكلمون عند الله -ﷻ- بالشفاعة والملائكة الذين يشفعون كثر كما يدلُّ عليه قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَبِرِضَىٰ﴾ ﴿٣٦﴾ [النجم] وما جاء في هذه الآية مُطابِق تماماً لما جاء في آية النبأ من ذكر شَرْطِي قبول الشفاعة وأنها لا تُقبل إلا بشرطين قال: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَبِرِضَىٰ﴾ ﴿٣٦﴾ إذن الله للشافع ورضا الله عن المشفوع له، فلا تكون الشفاعة عند الله إلا بهذين: بإذن الله ﷻ للشافع ورضا منه -جلَّ وعلا- عن المشفوع له.

ومثل هذا تماماً قوله في سورة النبأ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ ﴿٣٨﴾ إذن الله للشافع ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ رضاه عن المشفوع له بقوله الصواب، وأساس الصواب التوحيد، فلا صواب إلا به، ولا قيام للدين إلا عليه.

مثل هذا أيضاً تفسير السلف لقول الله ﷻ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ﴿٨٧﴾ قال غير واحد: العهد: (لا إله إلا الله).

وتفسير العهد والصواب بـ(لا إله إلا الله) من أحسن التفسير وأجوده، وأدله على مكانة (لا إله إلا الله) ومكانة التوحيد لدى الصحابة رضي الله عنهم، وأنها أساس هذا الدين الذي لا قيام للدين إلا عليه، فمن لم يأت يوم القيامة بالتوحيد، برئ من العهد، ولم يكن من أهل الصواب فلا ينال شفاعتهما كما كان تعبدته كما قال ﷻ: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ [الانفطار: ١٩] اشتملت الآية على ثلاث نكرات في سياق النفي وكلها تفيد العموم؛ لأنَّ النكرة إذا جاءت في سياق الشرط أو سياق النهي أو سياق النفي تفيد العموم، ﴿لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ﴾ أي نفس مهما عظم شأنها وعلت مكانتها، ﴿لِنَفْسٍ﴾ أيضاً مهما أحببت ذلك لها، ﴿شَيْئًا﴾ ولو يسيراً ولو قليلاً، ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَ لِلَّهِ﴾ فالأمر بيده فلا شفاعتهما عند الله ﷻ إلا بإذن منه للشافع ورضا منه -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- عن المشفوع له.

يوضح هذا الفهم للآية -فهم الصحابة رضي الله عنهم للآية- حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في صحيح البخاري (ح ٩٩): أنه قال للنبي -عليه الصلاة والسلام-: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ» فمن جاء يوم القيامة معه التوحيد والإخلاص وتحقيق (لا إله إلا الله) فاز برضا الله ﷻ وحظي بشفاعة

الشُّفْعَاءُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ مَمَّنْ يَأْذَنُ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لَهُمْ بِالشُّفْعَاءِ. (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) هِيَ أَسَاسُ الدِّينِ.

وَمِنَ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ وَالْبَلِيَّاتِ فِي الْمَتَمِّينَ لِلْإِسْلَامِ وَالْمَتَسَبِّبِينَ لَهُ أَنْ تُوحِدَهُمُ اللَّهُ ﷻ قَدْ أَضَاعَهُ أُمَّةُ الضَّلَالِ وَدَعَاةُ الْبَاطِلِ لِلشُّفْعَاءِ تَحْتَ مَفَاهِيمِ خَاطِئَةٍ لِلشُّفْعَاءِ، وَلِهَذَا يَمَارِسُونَ مِمَارِسَاتٍ شَرَكِيَّةَ كَبِيرَةً وَتَعَلُّقَاتٍ بِغَيْرِ اللَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - بَاطِلَةً، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: مَاذَا تَصْنَعُونَ؟ قَالُوا: نَسْتَشْفَعُ، وَنَطْلُبُ مِنْهُمْ الشُّفْعَاءَ. ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعْنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] يَمَارِسُونَ عِبَادَاتٍ يَتَوَجَّهُونَ بِهَا إِلَى غَيْرِ اللَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فَإِذَا سُئِلُوا عَنْ ذَلِكَ قَالُوا: هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا، يَشْفَعُونَ لَنَا عِنْدَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وَهَذَا أَبْطَلَ الْبَاطِلَ وَأَضَلَّ الضَّلَالِ وَأَشْنَعَهُ عَلَى الْإِطْلَاقِ.

وَفِي هَذَا الْمَقَامِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الْمَقَامَاتِ وَأَجْلَاهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ تَأْتِي مَهْمَةٌ طَلَبَةُ الْعِلْمِ النَّافِعِينَ وَالدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - الْمُصْلِحِينَ لِتَصْحِيحِ هَذِهِ الْمَفَاهِيمِ.

وَلَوْ فَتَشَّ الْمَفْتِشُ مِنْهَا وَنَظَرَ النَّاطِرُ إِلَى بَعْضِ قَرَابَتِهِ مِنْ أَبِي أَوْ أُمِّ أَوْ خَالٍ أَوْ عَمِّ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ لَرَبَّمَا وَجَدَ أَنَّ بَعْضَهُمْ قَدْ دَخَلَتْ عَلَيْهِ مِثْلُ هَذِهِ الدَّوَاحِلِ الْبَاطِلَةِ، مِمَّا يُعْظَمُ الْمَسْئُولِيَّةَ وَالْأَمَانَةَ فِي تَحْقِيقِ هَذَا الْوَاجِبِ نَصْحًا لِلنَّاسِ؛ نَصْحًا لِلأَبِ وَالْأُمِّ وَالْعَمِّ وَالْخَالِ وَالْأَخِ وَالْقَرِيبِ وَالْجَارِ

فِي بَيَانِ هَذَا الْأَسَاسِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الْأَسَاسِ فِي التَّأَكِيدِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَبَيَانِ مَعْنَى كَلِمَةِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) وَإِيرَادِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الَّتِي تُبَيِّنُ التَّوْحِيدَ وَتَوْضُحَ مَعْنَاهُ لِيُنْقَلَ هَؤُلَاءِ مِنَ التَّعَلُّقَاتِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْهِمْ مِنْ طَرِيقِ دَعَاةِ الضَّلَالِ، قَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: «أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأُمَّةَ الْمُضِلِّينَ» [الصَّحِيحَةُ ح ١٥٨٢].

وَأَذْكَرُ مَرَّةً تَحَدَّثْتُ إِلَى رَجُلٍ مِنْ إِحْدَى الدُّوَلِ حَوْلَ هَذَا الْمَوْضُوعِ - كُنْتُ سَمِعْتُهُ يَدْعُو النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ دُونِ اللَّهِ - فَلَمَّا انْتَهَيْتُ مِنْ ذِكْرِ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الْمَوْضُوحَةِ لِهَذَا الْأَمْرِ وَأَنَّ الدُّعَاءَ عِبَادَةٌ لَا تُصَرَّفُ إِلَّا لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا، قَالَ لِي: لَا أَحَدٌ قَالَ لِي مِثْلَ هَذَا الْكَلَامِ. مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَرِيبِينَ جَدًّا مِنَ الْخَيْرِ وَحَرِيبِينَ عَلَيْهِ وَطَامِعِينَ فِي فَضْلِ اللَّهِ وَنَوَالِهِ وَيَرْجُونَ جَنَّتَهُ وَيَخَافُونَ عِقَابَهُ؛ لَكِنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ أُمَّةُ الضَّلَالِ بِالشُّبُهَاتِ فَأَفْسَدَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَرَادُوا.

خِلَاصَةُ الْقَوْلِ: الْمَسْئُولِيَّةُ عَظِيمَةٌ وَالْوَاجِبُ جَسِيمٌ، وَأَعَانَكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا وَوَقِّفْكُمْ وَسَدِّدْ خُطَاكُمْ وَأَلْهَمْنَا وَإِيَّاكُمْ الصَّوَابَ فِي الْقَوْلِ وَالسَّدَادَ فِي الْعَمَلِ، وَهَدَانَا إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَأَصْلِحْ لَنَا شَأْنَنَا كُلَّهُ إِنَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - غَفُورٌ رَحِيمٌ جَوَادٌ كَرِيمٌ.



# التَّوْحِيدُ مُنْتَهَى الصَّوَابِ

كَلِمَةٌ

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ الدُّكْتُورِ

عَبْدِ الرَّزَاقِ بْنِ عَبْدِ الْمُحْسَنِ الْبَدْرِ

حَفَظَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى



رَاجِعْهَا الشَّيْخُ

